راضي علّوش في إبداعاته الجماليّة

بقلم د. محمد فران

لعلَّ شروق الشّمس اليومي أمرٌ طبيعيٌ، إذا نُظر إليه نظرةً سطحيّةً تتجدَّدُ فيها حقائب الأيام الدّاعية إلى السّأم والضّجر، وأمَّا إذا نظر الإنسان إلى هذا الشّروق نظرة تأمليّة إستبصاريّة، لوجد أنّ فيه ما يدعو إلى أن ينتظر جديدًا، وأنَّ شمس هذا اليوم لن تكون كشمس سابقه، وأنَّ ثمة دعوة صارخة تدفعه إلى ارتشاف ماء سلسبيل عذب يحقق الإرتواء بعد ظمأ شديد، لأنّ العين التي تتلذّذ بالنّور يمكنها أن تستأنس بنسائم الحريّة.

ونحن في هذا الصّدد، أمام موقفين اثنين، موقف ماديّ بحت، وموقف روحيّ معنويّ، لا سيّما إذا ارتبط الأمر بفعل الكتابة بعامة، والكتابة الفنيّة بخاصة، ولا سيّما بما له علاقة بالوجدان والذّوق القائمين على ارتباط الأنساق اللّغويّة بواقع الإنسان الحيّ، وما يثيره هذا الواقع من المشاعر والأحاسيس، وإمكانية تأكيد صور الانفعال بها، بصيغة سلسة حيَّة نابضة تحمل لنفسها صفة الإبداع، كما تحمل لصاحبها في آن، سمة الخلود.

ولهذا كان قَسَم ربّ العالمين في مطلع سورة القلم من القرآن الكريم :﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فالقلم بتأكيد رب العالمين دلالة على أنه آلة الخطِّ المناطُ بها فعل الكتابة، وعلى ذلك كان أمر الله : إقرأ لأنّ القيمة الأساس للكلام تكمن في الاعتماد على المسطور، وليس على كلام المشافهة الذي يذهب أدراج الرّياح.

وعليه وبعد أن استقامت للأدب العربيّ سليقته، وشمخت هامته، شعرًا ونثرًا إلى محاكات الزّمان، نرى أنّه، ومنذ عهوده الأوّلى، قد جرى العمل على خطين متوازيين في تحقيق حركيّة الإبداع، ولاسيما الشّعر منه، خط فيه التأنقُ وحسنُ الصّياغة بدءًا ب"أوس بن حجر" إلى تلميذه وربيبه "زهير بن سلمى" إلى ولدي زهير "كعب" و" بجير" وتلميذه "الحطيئة جرول"، إلى "كثير" و"الفرزدق"، ومن ثمّ إلى " أبي تمام الطائيّ" فـ"المتنبي" و"أبي العلاء" و"مهيار الديلمي"، إلى "صفي الدين الحلي" والشاب الظريف " محمد بن عفيف التلمساني. وخطٍ سلسٍ سهلٍ ممتنعٍ إنساب الشّعر فيه وجدانيًا خالصًا بدءًا بـ "امرئ القيس" إلى "طرفة بن العبد" إلى "عنترة" و"عمروبن كلثوم"، إلى "حسان بن ثابت الأنصاري"، إلى "عمر بن أبي ربيعة" ، إلى "ابو نواس" و"ابن الرومي" والبحتري" و"أبي فراس الحمداني" وغيرهم .

وفي هذه المقالة سأكتب عن الأستاذ راضي سالم علوش ومجموعته الأدبية، التي وفَّق صاحبه بين النّمطين السّالفين فجعلها خالية من التّكلُّف والإسفاف في آن، إذ أنَّ القارئ ليجد فيها رضىً ومنفعة ومتعة، وهي نوعان: الأوّل، عبارة عن مجموعة قصصيّة نشرت سنة 2005 تحت عنوان "جزيرة النّسيان"، ومجموعتين شعريتين نُشرت الأولى تحت عنوان "رياح ورياحين"، ونُشرت الثّانية سنة 2008 تحت عنوان "رقاق غزلٍ". أما النّوع الثّاني فهو عبارة عن دراسة نقديّة منهجيّة نُشرت سنة 2012 تحت عنوان "جبران والحداثة" وقوامها روحٌ علميّةٌ صافيةٌ توخت في إخراجها الأمانة والنزاهة والتّجرّد والموضوعيّة، فكان لها ما أرادت في صحة الرّصد والتّحليل والاستدلال وبُعد المرمى وسموّ الغاية.

وإذا عرض أفلاطون (429 – 337 ق.م) على لسان سقراط (469– 399 ق.م) وهو يحاور فيدروس (phaerdrus) قائلًا: "أحسب أنّك توافقني على أنَّ كلُّ خطابٍ يجب أن يكون منظَّمًا مثل الكائن الحيّ، ولكنّه في جسده وأعضائه مكوَّن بحيث تتحقّق الصّلة بين عضوٍ وآخر، ثم بين الأعضاء جميعًا، فيكون بذلك، الأستاذ راضي علوش قد حقّق في نصوصه الأربعة اللّحمة بين أجزاء كلّ منها مؤكدًا أنَّ للأدب الصادق مكونين اثنين: الأوّل ماديٌ، ولموضوعات اللّغة، مجتمعة، فيه نصيبٌ كبيرٌ، والثّاني معنويّ وللعقل والمخيلة والعاطفة فيه نصيب أكبر. وما البناء العضويّ عنده سوى تنظيم الإنفعالات، وإخضاع التّعدّد للوحدات الأساسيّة كوحدة المتكلّم ووحدة الموضوع والوحدة المنطقيّة ووحدة المتلقي التي من شأنها أن تجانس بين كل الأجزاء المكوّنة، بعد استخراج النّظام من الفوضى، لأنّ الهام عنده، فيما أبدع ما يكونه لا ما لا يعنيه لما يتمثل فيه من قوّة الإثارة والإيحاء.

وإذا أردت التّأكّد من صدق ما نهدنا إليه في مؤلفات الرّاضي الرّضي، لا بد من إمعان النظر مليًّا، حتى تتبادر إلى الذّهن الوحدة العضويّة في نصوصه وما يرمز إليه كلّ نصٍ منها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، وبعد قراءة نصّ "جزيرة النّسيان" يخرج القارئ منها وهو يلوي رأسه بسمو ما ترمز إليه حيث تردد اختصارًا: أنّ أي شعب تتمثّل في نفسه إرادة الحياة لابدّ له أن يجعل أرضه مقبرة للظّالمين وبلاده المنسية منارة تهدي إلى سبيل الرّشاد هاتفًا:

كُنْ كالحسامِ وقلْ ما أنتَ مُعْتقد للمستبدِّ ولا ترهَبْ إذا احْتَدمَ
إنَّ الجيادَ تلوكُ اللّجم مزبدة غيضًا، ولكنّها لا تبلغ اللّجما

وأما الأقصوصة "نوم في غير محله"، فترى بأنّها ترمز إلى أنّ اللّحمة الأسرويّة والقرويّة والوطنيّة والإقليميّة وحتى الأممية منها، لا يمكن أن تتزعزع ما دام النّاس فيها قد تدرَّعوا بثوب العاطفة الصادقة في حياة هانئة مبنية على حسن التّعاطي الخلاب.

وأما الأقصوصة "عالم العوالم" فترمز إلى العنت الجائر في تمثُّل الأهل، في مجتمعاتنا المختلفة، للقيم الموروثة الضّالة التي تجعل من المحبّة الصّادقة نارًا تدمّر حياة البشر، وتفكّك العرى بين أواصر المجتمعات التي ينبغي لها أن تسعى وبقوة، إلى السّعادة المؤتزرة بالفرح إنسجامًا مع قول نزار قباني:

الحبُّ في الأرضِ بعضٌ منْ تصوّرنا لَو لَم نَجدْه عليها لاخْترعْنَاه

وحتى لا نشرب البحر كي نحسّ بطعم الملاحة، نكتفي بهذا القدر من المجموعة القصصيّة، لننصرف إلى الشّعر في "رياح ورياحين" و"رقاق غزلٍ" وبإيجاز أيضًا إذ عدّ الشّاعر راضي علوش أنّ الشّعر لغة داخل اللّغة على حد قول"بول فاليري" لأنّه يعدّها قائمة على قوة الإيحاء في الأدب كونها قادرة على الخلق من خلال تجسيدها للمعاني وتشخيصها للجماد، لإخراج الكلام من حيّز التّقرير إلى مجالات الإبداع الواسعة.

ومن ذلك قوله في الفدائيّ:

ودَّع الأهل سريعًا ثم غاب ... وبعينيه اغتراب ... ومضى كالريح يطوي الأرض، يعدو كالسحاب ...

أو قوله: لم يمت يا أمُّ لا، لا تندبيه... إسألي فينا الجباه... إسألي فينا رؤاه... كيف حلَّت في ضمير الأفق نسرا؟ كيف باتت في ثنايا الليل فجرا؟

أو قوله:

عصف الرّياح هنا والثّلج و المطر والأرض ترقب فاديها وتنتظر
عصف الرّياح هنا من كل ناحية والقلب يشقى بنار البعد ينفطر

وقوله غزلًا:

مذ رأتكِ العين راحت تتجلى ترسم الحسن ظلالًا من سناكِ
أي حسنٍ، أي سحرٍ، أي طيبٍ كل طيب الأرض فيضٌ من بهاك
امسحي الأحزان عن وجهي بوعدٍ ما براه الحزن يبرا بلقاكِ

وقوله كذلك:

شاقني يا ليل شهدٌ وأرق وانجذابٌ في مواويل الحدق
وحكايا جنَّ فيها عاشقٌ وجنون العشق زهوٌ وألق
وفراش يكتسي من آهنا حلل الوجد وبوحًا من حُرق
شاقني يا شوق فارحم مهجتي وانتشلني من بُوار وغرق

وقوله أخيرًا

من بحر عينيكِ يا ليلاي أرتشف سحرًا يجود به الإلهام والشغف
جودي عليَّ فقلبي اليوم في مرضٍ والطرفُ شاكٍ براء الشوق واللهف

أنتِ الجمالُ أيا ليلى فمعذرة كلُ البيان يلاقي العجز إذ يصف

أكتفي بهذا القدر من الشواهد من دون أن أشير إلى مواطن الجمال فيها عرضًا وتحليلًا تاركًا ذلك لجميع القراء الألبَّاء من أكاديميين ومثقفين ...